لورنس في الميزان

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرفة لورنس بالعربية

اللغة العربية اصعب على الاوربيين من اللغات الاوربية على ابناء العرب . ولئن قام عدد من المستشرقين يجيدون اللغة العربية في المحابر وبين طيات الكتب فان الذين يعرفونها منهم حية في الافواه قليلون . ولم يهتم لورنس لعربية «ضرب زيد عمراً» اهتمامه لعربية القبائل في المضارب . واذكر اني سمعته مرة واحدة يبحث عن اصل كلمة عربية في المعاجم وذلك عقيب ليلة قضاها في القاهرة في فندق كبير مُسرِفٍ ولم يذق فيها طعم الكرى من شدة اللدغ فقلت لهُ ان الاحياء التي تعيش طفيلية على غيرها ثقيلة ومزعجة خصوصاً ما كان منها من ذوات المراشف التي تمتص الدماء الزكية فاقرّ كلامي وقد زعم ان البقّ لم ينتقل وحده من الشرق الى الغرب بل نقل اسمه معهُ الى بلاد الانكليز . واخبرني المجاهد السوري الباسل نزيه بك المؤيد العظم انهُ سمع لورنس يتكلم العربية مع قبائل الحويطات في سنة ١٩١٨ فكانت لهجتهُ بدوية قلّما يجيد مثلها اجنبي ولعل ذلك لشأ عن تمرينه المديد في ايام الثورة . وهذا ما كتبهُ لورنس عن معرفته باللغة العربية في كتاب ارسله الى صديقه جريفز :

« قرأت وانا في جامعة اكسفورد قبل سفري لاول مرّة كتيباً في النحو العامي وفي غضون السنين الاربع التي تلت ذلك اضفت الى هذا الموجز النحوي معجماً لا يستهان به من كلمات ذات فائدة في الابحاث الاثرية اجمالاً — اربعة آلاف كلمة

« ثم اني في السنتين الاوليين من الحرب ما تكلمت كلمة واحدة من هذا المعجم تقريباً، وبالنظر الى اني لم اتعلم احرف الكتابة والقراءة — ولما اتعلمها — فاني كدت انسى هذا المعجم كله بطبيعة الحال . فلما انضممت الى «فيصل» كان عليّ ان اباشره من جديد بلهجة جديدة مختلفة كل الاختلاف . وبالساع حملتا كنت انتقل من لهجة الى اخرى بحيث اني لم أستقر في مكان لاتعلّم واحدة منها على الاصول . وكذلك فان تعلمي كان بطريقة الاذن — من غير علم باللغة المكتوبة — فكان تعلمي خطأ وكان اساتذتي خدّامي فكان في

انقسهم من الحرمة لي ما منعهم من الاستمرار على تنبيهي الى اغلاطي وقد استسهلوا أن يتعلموا عربيتي على ان يعلموني عربيتهم. واخيراً كان تحت تصرفي اثنا عشر الف كلمة . وهذا معجم لا بأس به في الانكليزية ولكنهُ لا يكفي في العربية . لانها لغة واسعة جدًّا . وكنت أركب هذه الكلمات بعضها مع بعض بصرف ونحو من اختراعي . وقد دعا فيصل عربيتي (تشرُّداً مستمرًّا) فكان يستفزني للكلام تلذُّذاً . ولم استمع في حياتي رجلاً انكليزيًّا اتقن اللغة العربية اتقاناً يوهم سامعيهِ لمدة خمس دقائق انهُ من ابناء قطر من الاقطار العربية »

خطط لورنس الحربية

تجاوز عدد الجيش العثماني في شمال الحجاز في المدينة وما يتصل بها من المواقع العسكرية على السكة الحديد الحجازية الى محطة (تبوك) ثلاثين الفاً، وكان هذا الجيش مزوَّداً بأمضى السلاح ولا سيما بالمدفعية السريعة الطلقات البعيدة المرمى مما كاد يثني عزم البدو عن المضيّ في الحرب مع الحلفاء ، وكان على قيادته رجل عنيد من اهل الشكائم المستعصية التي لا تخضع للنصيحة عرفته في دمشق واسمه جَمَري باشا ، وقد استحوذت عليهِ وعلى رهط الاتحاديين من زملائه الاعتبارات السياسية فصرفت اذهانهم عن الاعتبارات الفنية لانهم صموا آذانهم عن سماع التقرير المهم الذي رفعته هيئة ضباط الاركان حرب التي امَّت (المدينة) في سنة ١٩١٧ بعد ما درست وضعها الحربية درساً فنيًّا دقيقاً فكانت النتيجة التي اوصت بها وجوب اخلاء (المدينة) والمواقع العسكرية على خط السكة الحديد حتى (معان) واستخدام هذا الجيش اللجب في تأييد الحملة على مصر. غير ان الذين استولت عليهم فكرة «الجامعة الاسلامية» اللذيذة تعذرت عليهم رؤية النتائج المنطقية التي يؤدّيها اهل الفن فاستسلموا للعاطفة بدلاً من التسليم للمنطق وفضلوا ان يطمروا جيشاً قويًّا تحت جدران (المدينة) ارضاء للمتحمسين على سحبه لتقوية الجبهة في سيناء . واذ كانت فرنسا تعد الالمان حلفاء المسلمين عن اراضيها بالتونسيين والجزائريين والمراكشيين وانكلترا تفتح عاصمة العباسيين بالهنود وتشن الغارة على فلسطين بواسطة سكة حديدية بناها المسلمون كان الجيش العثماني في شمال الحجاز يموت من الجوع والمرض في سبيل فتوى اصدرها خير الدين افندي الاركوبي من الاستانة «بالجهاد المقدس» . وهكذا حقق قواد هذا الجيش بواطفهم الملتهبة الخطة الباردة التي اختطها لورنس تحقيقاً تامًّا. قال لورنس في كتابه «ثورة في الصحراء» صفحة ٦٦ وعلينا ألاَّ نكتسح (المدينة) لان الترك لا يخشى منهم ضرراً ما داموا فيها . وهم اذا كانوا في معسكرات الاسر في مصر كلفونا طعاماً وخفراً. وهنا ان يبقى اكبر عدد منهم في (المدينة) او في اي مكان

سحيق آخر وامنيتنا هي ان تستر سكتهم الحديد على عملها البسيط يعني أن تبقى في قيد الحياة فقط مع اكبر خسارة يتحملونها وارتباك يعانونهُ . وتجبرهم حاجتهم الى الطعام على ملازمة السكة الحديد، فأهلاً بهم وسهلاً في مدة الحرب في سكة حديد الحجاز وفي سكة حديد شرق الاردن وفي سكة حديد فلسطين وسورية ما داموا قد سلمونا ثمانمائة وتسعة وتسعين جزءاً من الالف من مجموع العالم العربي . ومتى استجدَّ في التركي ميل الى الجلاء على عجل كي يتمكن من الارتكاز في اليمنة الصغيرة التي يستطيع التسلط عليها فعلينا حينئذ ان نعيد اليه ثقته واطمئنانه بتقليل الحملات التي نوجهها عليه فيكون حقه والحالة هذه حليفاً لنا لانضالته المنشودةهي الاحتفاظ بما يمكن من ولاياته القديمة ، وهذا الفخر بميراثه الامبراطوري سيبقيه على وضعته الحاضرة السخيفة يعني انهُ كلهُ جوانب معرَّضة للهجوم من غير جهة امامية »

وافضل برهان يقدمهُ لورنس على نجاح خطته المستندة الى الضبط الحسابي البارد وفشل خطة الاتحاديين المضطرمة بنيران الانفعال الطليق من الوازع العقلي ان الثلاثة والعشرين الفاً من الجنود العثمانيين المقاتلين في (المدينة) في سنة ١٩١٧ اصبحوا في نهاية الحرب نحو اربعة آلاف اسير في مصر ، واما السكة الحديد الحجازية فقد اكلت الاخضر واليابس وكانت سورية وفلسطين غابتهما وجانباً كبيراً من اشجارها المثمرة وكانت للبدو مشغلة يلتهون بها ومخزناً يتبضعون منهُ ومدرسة يتعلمون فيها الكر والفر

لورنس والحضر من اهل سوريا

لقد حمل (جريفز) على السوريين حملة منكرة ولم يكن لورنس راضياً عن الحضر اجمالاً بل كان قلبه مفعماً بحب البدو ، وعندي ان هذا الحب كان من العوامل الكبرى التي ساقته رغم طبعه الملول القلّب الى السير في الحرب حتى النهاية . واني اخشى كثيراً ان يكون كل منهما قد بني من الحوادث الفردية التي لقيها قاعدة عامّة فظلم شعباً بمجرد اختبارات موضعية شاذة ، وهذا كثيراً ما يصيب السياح ويعلل التناقض العجيب في الاخبار التي دونوها عن البلدان التي زاروها . فمن ذلك ان (لورنس) لما وصل الى (وادي السرحان) مع بعض رفقائه الدماشقة وذلك بعد انقطاع في البادية البداء اسبوعين كاملين قرأوا الواحات الكثيرة والمياه القريبة من سطح الارض جاء واحد منهم اليه وذكر لهُ

الخطط الزراعية الواجب تطبيقها لغرس الاشجار واحياء الارض الموات وجمع القلال لخدمة الحكومة العربية القادمة ! قال (لورنس) في كتابه « ثورة في الصحراء » معقباً على هذه الخطط الوهمية « وان مثل هذا الخيال الوثاب هو من خصائص السوريين الذين يسهلون لانفسهم قبول الاحتمالات الممكنة ثم يتقدمون بمثل هذه السرعة ليلقوا على اعناق غيرهم التبعات الحاضرة العالقة باعناقهم » ثم قال لرفيقه السوري « يا فلان ان ناقتك تتثاقل بالجرب » فاجابه « نعم ويا للاسف ولكننا في المساء عند تمايل الشمس سنسرع في طلي جلدها بالرهم » وفي اثناء الرحلة التالية ذكّره لورنس بالجرب فاجابهُ صاحبنا ان مسألة الجرب هذه ولّدت في نفسه فكرة جديدة كاملة وهي « ان الشام متى سقطت بايدينا أسسنا فيها دائرة رسمية للبيطرة تعنى فيها بالابل والخيل والحمير حتى النعم والمعز مع هيئة من جراحين ماهرين وبني مستشفيات مركزية فيها طلاب للدرس في المناطق الاربع ويكون في جملة الموظفين مفتشون متنقلون ومخابر للبحث والتنقيب الخ . . الخ » . . . اما الناقة التي كانت تقله فلم تكن قد حصلت بعد ويا للاسف على الاسعاف الضروري لها . وفي اليوم السادس هلكت

وعندي ان (لورنس) مفرط فيما ذهب اليه من ولع السوريين بالاوهام وفرارهم من التبعات ، بل دلتني تجاربي في البلدان الاجنبية التي نزلوا بها على انهم ربما كانوا اقرب الى التطبيقات العملية من غيرهم . واني لا انكر ابداً ان بعض النفسيين الوصوليين منهم سواء كانوا في الوطن ام في المهجر لا يشرّفون سورية كثيراً وهم يستحقون المعائب التي الصقها بهم (جريفز) ولكن الذي لا يسمح به التاريخ أبداً هو ان تلصق مثل هذه الهنات الفردية بشعب كامل يطلب الحياة الحرة من اشرف وجوهها وقد بذل في سبيلها من الغالي والرخيص ما ينوء به اي شعب آخر في الشرق او في الغرب . وقد رأينا في ابان الحرب العالمية بعض افراد في ارقى امم الارض كانوا عوناً لاعداء بلادهم عليها لكن حكمنا على تلك الامم لم يتغير ، لان العبرة بالشعب مجملاً لا بالافراد الشواذ . وفي الشرق اقطار تشكو من عقوق ابنائها الذين بنوا لحمهم وعظمهم ودمهم من ترابها وماثها وهوائها اضعاف اضعاف ما تشكو من جميع الاجانب النازلين بها

وعلى كل حال فالبدو الذين جاء (لورنس) لتحريرهم هم احرار في المهد ولا يقدر الحرية احد مثلهم وقد حادثت في الصحراء في سنة ١٩٢٦ زمرة منهم من قبيلة بني صخر عددهم خمسة فقلت لهم لو قدر لكم ان تعودوا الى عالم الذر ثم خيرتم قبل مجيئكم الى الدنيا فأي حياة تحبون البدوية ام الحضرية ؟ فأربعة منهم فضلوا البدوية من غير تردد وأجمعوا على ان البداوة اذا كان وراءها كفايتها — ابل وبيوت شعر واوطاب لبن ! — ضمنت للمرء استقلاله في منزله

وحريته في تنقله من غير اسر لاحد، وهكذا فشقاق العيش مع الحرية اوقع في قلوبهم من اليسر مع الاسر

ومما تحسن الاشارة اليه ان الكولونل لورنس اختلف في الرأي مع السوريين في (وادي السرحان) فقد ذهبوا الى وجوب ترك العقبة وشأنها والسفر توًّا من التلك حيث يقيم المجاهدون الدروز اليوم الى دمشق الشام ، لكن لورنس كان عالماً بوجود جيش لجب من الترك في حلب لاجل استرجاع العراق فاذا ما هدَّد العرب الشام زحف هذا الجيش بخيله ورجله لانقاذها ، اما الجيش البريطاني فكان مقيداً بجانب (غزة هاشم) لايستطيع حراكاً وانزال الجنود في بيروت متعذر لفقد المواصلات ، وهكذا ارتأى (لورنس) ان مثل هذه الحملة التي اقترحها السوريون اذا ذهبت الى الشام باءت بالفشل واضمحلت معها الثورة العربية من الباب الى المحراب ، فاستعمل لورنس الدسائس لارجاعهم عن عزمهم ومما فعله انهُ قال لعوده ابي تايه يا عودة اذا جملنا دمشق هدفنا فان الكعب والشهرة يذهبان الى الفوري الشعلان بدلاً منك وقال للشريف ناصر ان الواجب يقضي بمهاجمة العقبة ثم ملقه بالاشادة بأصله وبشرف بيته وعرِّض بأصل السوريين على الطريقة التي تستفز العرب عادة وتثير النعرات بينهم والتي كانت في تاريخهم وتاريخ خلافتهم بلاء لا يعادلهُ بلاء . واخيراً بمثل هذه الاساليب التي جازت على البدو ولم يفطن لها السوريون تغلب رأيه عليهم ، على ان بعضاً منهم بقي مصرًّا على السفر شمالاً وطلب من (لورنس) اسعافه بالمال فوعده وهو غير مؤمن بنجاحه، ومما اشترطه عليه ان يعطي من المال الذي يحمله جزءاً للشريف (ناصر) ففعل وهكذا غادر هؤلاء المجاهدون وادي السرحان الى جبل الدروز فكان لهم مع « ابناء معروف» حديث طويل تحققت فيه نبوءة لورنس

تطوّح لورنس

قبلت الحكومة البريطانية المطالب التي تمسك بها الحسين بن علي وهي استقلال العرب ليس في الحجاز وما اليه من البلدان العربية الغربية فقط بل في اجزاء كبيرة من القطرين السوري والعراقي وحدَّدت هذا القبول بجملة معترضة هي السم في الدسم اذ قالت (من غير اخلال لمصالح فرنسا حليفتنا) وهذا الشرط الموضوع بين هلالين ستر تلك المعاهدة السرية المعقودة بين انكلترا وفرنسا وروسيا باسم معاهدة «سايكس — بيكو» وفيها تم الاتفاق على ضم بقاع واحداث مناطق نفوذ في بقاع اخرى . ولم يحجم (المستر جريفز) عند ذكرها ان

يقول « والواقع انها لا احتمال معها لتحقيق اية حرية صحيحة » ولم يكن المندوب السامي عالماً بها ولا الحسين بن علي. اما الانذار الذي قدّمه بعض الكتّاب عن هذا التناقض المعيب في السياسة البريطانية بقوله ان الذي حدث انما هو وجود دائرتين في وزارة الخارجية البريطانية استقلت كل منهما بواحدة من هاتين المعاهدتين من دون ان تكاشف الاخرى فهو من سقط الكلام ولا يليق ان يقال حتى عن الصين في اعظم ايام تكبّها وانتشار الفوضى في ربوعها ناهيك بأن ينسب الى اعرق دولة في التنظيم السياسي وانسجام الخطط الخارجية. ومما هو حري بالتدوين ان المندوب السامي البريطاني في مصر لما تناول امراً بعقد اتفاقه مع الحسين بن علي ارسل انذاراً الى حكومته شديد اللهجة قال فيه انها بتأييدنا القضية الوطنية في بلاد العرب نعمل عملاً مخفوفاً بأعظم الاخطار واشد المهالك لان حُرّية العرب قد تنمو في احد الايام فتصير الثول الذي افترس صانعهُ في رواية (فرانكنشين)

ومن جعل الضرغام للصيد بازه تصيده الضرغام فيما تصيدا

فلما حدثت الثورة في روسيا في ربيع سنة ١٩١٧ نشر البولشفيك صورة هذه المعاهدة فتناولها الترك ووزعوها في الاقطار الحساسة ذات التأثير في المصالح الانكليزية. ورأينا في القاهرة في تلك الايام (السير مارك سايكس) يعود من لندن ليخفف من سوء وقعها في الاوساط العربية وما قد تحدثه من رد الفعل فاجتمع بنا وبالمرحوم رفيق بك العظم وبآخرين من اخواننا فلم تكن دهشتنا من حديثه دون دهشته من قوة اجوبتنا. وذكر (المستر جريفز) أن (نوري باشا السعيد) لما اطلع عليها دخل على (لورنس) فسأله اي المهدين سترتبط به انكلترا فاجابه بعد تردد نفساني عميق ستحافظ انكلترا على كلتيهما لفظاً ومعنىً وأن العهد المتأخر ينسخ المعاهدة المتقدمة

لكن تأله النفساني من هذه المواربة اللفظية وخوفه من الغدر المضمر للعرب وقلة ثقته بالحضر من ابناء سورية والعراق والحكومات التي يؤلفونها كل ذلك في نظر (المستر جريفز) حمل لورنس على تطوح كاد يكون انتحاراً مقصوداً فغادر (وادي السرحان) في اليوم الثالث من يونيه (حزيران) سنة ١٩١٧ مع نفر من حرسه ولم يعد الاّ بعد مرور اسبوعين زار في خلالها (دمشق الشام) ووصل في الشمال حتى (رأس بعلبك) وقد صرّح لكثير من اصدقائه عن هذه الرحلة التطوحية التي بلغت نحو اربعمائة ميل انهُ ما تستر في اثنائها قط بشيء سوى الظن بان مثل هذا الجنون لا يقدم عليه احد فيه مسكة من العقل على انهُ اضطر ان يؤجل رؤيته المواقع المحصنة الى وقت الظلام

والذي يلوح لي من جميع ذلك ان النفس تطوح الوثابة في (لورنس) كانت كلما

احست بفشل في الخطة او خيبة في الامل اقدمت على عمل اشد خطراً للتعويض عما شعرت بما لحقها من العيب . وقد قام يوسف بك العظمة وزير الحربية على عهد الحكومة الوطنية بدمشق يعمل فذٌ محفوف بالاخطار على هذا النمط فذهب الى ساحة القتال في (بسلون) ووقف — وهو اكبر موظف في الجيش — في الصف الاول بين المحاربين يقاتل بمدسه حتى قتل : انهُ فعل ذلك للهواجس النفسانية المرّة التي استولت عليه من بعد ما تبين خصومهُ في المراكز الدقيقة ان الجيش الذي يريد ان يحارب به أعظم دولة عسكرية على وجه الارض مسلح بخمسة آلاف بندقية وخمسين مدفعاً وان لكل بندقية مائتين واربعين رصاصة ولكل مدفع ثماني واربعين قنبلة فقط ! فنفسه الكبيرة لما شعرت بالتهمة العظيمة من كشف هذه الاسرار التي وصلت الى اذن الاعداء طلبت راحة لها في الاقدام وأعمال البطولة فذهبت الى ساحة المجد والشرف حيث تمتعت براحة الموت. وان انسَ لا انسَ وداعه لنا في مجلس الوزراء وذلك عقيب القرار السري الذي اصدره المجلس الحربي الاعلى برئاسة الملك بأن جيشاً هذا سلاحه وهذا عتاده لا يستطيع الوقوف في جبهة حربية نظامية اكثر من خمس دقائق. قال يوسف بك العظمة في جوابه عن هذا القرار « اني بعد فضح اسرار الجيش لم يبق امامي غير الذهاب الى الجبهة فالوداع الوداع » . وذكر (جريفز) عن لورنس انهُ ما احجم عن الانتحار الاّ لان ذلك يكون افراطاً في الاهتمام بالموت وهو لم يرضه لنفسه بل جل ما سمح به هو ان يتعرض للخطر الدائم على ان يكون من السلامة قيد انملة فقط مع تمني الكارثة في كل حين

تقصير (لورنس) في بث الدعاية للجيش العربي

ومما يعاب على (لورنس) تقصيره في بث الدعاية للجيش العربي وسكوته العميق عن الثورة العربية وغاياتها في إبان اشتعالها . وهذا واضح لمن تتبع اخبار الحرب العظمى في المدوّنات وامهات الكتب فاذا ما ذكر الحسين واولاده والسوريون والعراقيون واليد وعلى ابواب (المدينة) او تخوم الشام فانما يذكرون على سبيل النادرة المستملحة ، على ان عملهم الباهر الاخير في احتلال (درعا) ودخول (الشام) حمل الجنرال (اللنبي) على الاعتراف من غير اقل تلجلج بالمساعدة الثمينة البالغة التي قدّمها العرب للحلفاء . ولما كان للدعايات شأن عظيم في عصرنا هذا حتى قيل ان الالمان انما قهرت في الحرب العالمية بدعاية الانكليز فالتهمة على (لورنس) من قصوره في تقديم التقارير الضافية عن الاعمال التي كانت تجري في جزيرة

العرب هي تبعة عظيمة وهي ايضاً درس بليغ لكل امة تطلب الحياة الحرة بالبذل الثمين من غير تنظيم سياسي ينشر في العالم اخبار هذا البذل

تردُّد لورنس

مما اعيب على لورنس تردده في الامر وعدم استقراره على الرأي فقد حدث في ربيع سنة ١٩٢١ ان عقد مؤتمر في فندق (سميراميس) في القاهرة برئاسة المستر (ولستن تشرتشل) دعي اليه من الرجال الذين عرفتهم السير (برسي كوكس) المندوب البريطاني على العراق والجنرال (ووترستيلر) والكولونل (لورنس) و (جعفر باشا العسكري) والمورد (رجلان) و(ساسون افندي) ومعهم (المس جرترود بل) المستشرقة الاثرية المعروفة ووثيقة القلم الشرقي في العراق. فدعاني السير (برسي كوكس) لتناول العشاء معهُ في الفندق فقلت فرصة سانحة جداً لمعرفة ما يمكن معرفتهُ مما يجري في الخفاء وراء الجدران. والتقيت بعد العشاء بصديقنا القديم الكولونل (لورنس) وهو بزته الملكية وعينيه المتوقدتين فجرى بيننا حديث ادبي سألته في نهايته هل كان مسروراً بما يجري في المؤتمر فظهر لي على التحقيق اشمئزازاً عظيماً ونفرة جلية ومما قالهُ لي «ليتني لم اجيء الى هذا المكان ولم اجتمع بؤلاء الناس ولا رأيت هذه الوجوه وما أحلى عودتي من حيث أتيت» مما دلني على ان رغائبهُ التي عهدناها فيه ايام الثورة لم تجد آذاناً مصغية. وبقيت هذه الفكرة مطبوعة في نفسي الى أن اطلعت على رسالة بقلمه تنم على رضائه الصريح عن المستر (تشرشل) المحافظ المشهور والاستعماري القح في معالجة الشؤون العراقية فعجبت كل العجب من هذا التناقض الغريب

ومن هذا التردد وعدم الاستقرار ما ذكرته فيما سبق من قبوله ان يسافر الى العراق لافساد الجيش العثماني بالرشوة وانقاذ الجنرال (تونزند) المحصور في كوت الامارة ولكنهُ حالما انتبه وجدانه الى ان مثل هذا العمل ليس شريفاً تراجع شأن كثير من الرجال الذين لا يعرفون الشر الاَّ اذا نبهوا اليه في حين ان النفوس الروحانية الرقيقة سباقة الى معرفة الشرور من غير المنبهات الخارجية، ولعلَّ صغر سنهِ وقلة تجاربهِ وميله للتطوح كل ذلك دفعه يومئذٍ الى ركوب هذا المتن. واما ما اعتذر بهِ عنهُ المستر (جريفز) من حرصه على الالتقاء بالنوري الشعلان وقبائل الرولا فهو في نظري «تعليل بعيد الوقوع»

واطلعت على بعض معاملات خاصة جائرة تتعلق باناس عرفهم (لورنس) كل المعرفة وكان بوسعهِ ان يحول دون هذه المعاملات ولكنهُ استسلم للدعايات الكاذبة واجاز لنفسه

السكوت عنها . وفي الرسالة الآتية التي كتبها الى صديقه المستر (رتشاردس) في ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٩١٨ ما يدل على ذهنية متقلقلة مضطربة وقد جاء فيها :

« اما أنا فقد انتابت من منبتي بمنقب شديد وغرست على عمق بعيد في عمل كبير لا اتسع له حتى صرت ارى الاشياء كلها وهمية ، وقد القيت وراء ظهري كل شيء عملتهُ حتى الآن واعيش لغدًا يشرق الفرص أني سنحت وحيثما رأيتها . والغالب ان جماعتي اخبروك ان هذا العمل هو اشعال ثورة عربية على الترك فعليّ والحالة هذه ان استرمظهري الافرنجي والاّ ابتعد عن الهيئة العربية جهد طاقتي . فانت ترى ان هذا مسرح اجنبي على الممثل ان يلعب عليه ليل نهار بلباس مبهرج ولغة اعجمية وثمن الفشل في التمثيل ينصبّ على رأسه اذا هو لم يجد دوره

« لقد اصبت في ظنك ان العرب راقوا لخيالي : فمدينتهم هي تلك المدينة القديمة التي تخلصت من اصنام المنازل ومن معظم الزخارف التي تسرع مدينتنا الى الاكتساء بها واتخيل الفلة في الماديات اتخيل صالح ويشمل على ما ارى نوعاً من الفلة في الاخلاقيات ايضاً : فالعرب يفكرون آنيًا في الحالة التي هم عليها ويسعون للانسياب في الحياة من غير ان يدوروا الزوايا او يتسلقوا الهضاب . . . . ليس في طاقتي ان اتخيل ما قال لك قومي عني ، وانا حتى الآن كنا نهيء الاساس الذي تبنى عليه الثورة فقط ولما نقف على حافة العمل ، ولست ادري ازبح ام نخسر ولا اعرف متى نضرب ضربتنا ، وكل ذلك رواية تمثيلية ولا يستطيع المرء ان يتساول بعقيدة اعمانية ثابتة الاحلام التي يحلمها في يومه . انا اذا ما نجحنا فاني اكون قد أجدت استخدام المادة التي اعطيتها واما اذا خسرنا فسنستمر على حفر الاسس . . . . ان هذه الرسالة بلاهة وغاية ما ترمي اليه طلب التغير من حال الى حال وهو بلاهة ، لانني ابدل مكاني كل يوم وعملي كل يومين ولقي كل ثلاثة ايام ومع ذلك ابقى دائماً غير راض . واني اكره ان اكون في الامام واكره ان اكون في الوراء ولا احب التبعة ولا اطيع الاوامر ولا خير يرتجى مني الآن مطلقاً . وكل ما اتطلع اليه سكون مديد كالسهل يطهرني ثم تفكير عميق واتخاذ قرار حازم في انتهاج منهج للمستقبل »

سننشر في الجزء القادم المقال الاخير وهو مسك الختام لهذه المقالات التاريخية الشائقة البليغة